دلالات إثبات المقاربة بـ(كاد) ونفيها في القرآن الكريم

وعلاقتها بوقوع الفعل المقارَب

د. محمّد كريم جبّار

المديرية العامة للتربية في المثنى

الملخص

يتناول هذا البحث دلالة انتفاء وقوع خبر (كاد) في القرآن الكريم ، ودلالات إثبات المقاربة بـ(كاد) ونفيها ، إذ تشترك المواضع التي وردت فيها (كاد) بدلالتها على دلالة رئيسة هي انتفاء وقوع الفعل المقارَب وهو خبر (كاد) ، وتصاحب تلك الدلالة الرئيسة دلالاتٌ فرعيّة هي نتاجُ تضافر قرائن سياقات النصوص مع دلالة نفي المقاربة وإثباتها، واعتماداً على تشخيص الدلالات المتحصّلة من السياق والتي قد تُظهر في بعض المواضع وقوعَ الفعل المقارَب عيّن البحثُ حدودَ الدلالات الرئيسة والفرعيّة والمتحصّلة من السياقات، ونأى بنفسه عن التأثر بالأقوال التي خلطت بينها وخرجت بقواعدَ بعيدةٍ عن فحوى النصوص .

Summary

This research deals with the significance of the negation of the occurrence of the report (cad) in the Holy Qur'an, and the implications of proving and negating the approach with (cad) as the places in which (cad) are mentioned share their evidence for a main indication which is the absence of the occurrence of the convergent verb, which is the narration of (cad), and this significance accompanies The main sub-indicators are the product of the intertwining of the presumptions of the

contexts of the texts with the significance of the negation of the approach and its affirmation. far from the tenor texts.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين ، أمّا بعد فهذا بحث يتحرّى السياقات القرآنية التي وردت فيها (كاد) في القرآن الكريم للوقوف على دلالة نفيها وإثباتها ودلالة وقوع خبرها ، وهو يُحَكّمُ النصوصَ لا القاعدة . فالفعل(كاد) لفظ يستعمله العرب كغيره من الألفاظ ، وهم يعرفون دلالته ويضعونه المحل الذي وضعه أسلافهم ، وعلى هذا جاء الاستعمال القرآني ، لكنّ ثمة مواضع كانت سياقاتها ـ بلحاظ وقوع خبرها ـ ذات دلالات تَفُتّ في عَضُد أن تكون دلالة نفي (كاد) فيها بحسب الوضع ، وكانت تلك الدلالة مُتحصّلة من قرائن مقالية ومقامية غير (كاد) وما دخل عليها من أدوات النفي .

وكان من نتائج هذا أنْ أعملَ اللغويون والمفسرون تخريجاتهم في تلك المواضع ؛ فكانت الأقوال شتى لا يمكن أن تجتمع ، وكانت بعض النتائج أبعد من القبول ، وعلى الرغم من ذلك فقد ظلّت نصوص تلك المواضع ممّا تستسيغه ذائقة الأجيال ، وتَمُجُّ تأويلات حاولت لَيَّ أعنّة النصوص ؛ لتطوّعها لقاعدة بُنيت على استقراء ناقص . وقد أَوْكل البحث معرفة دلالات نفي المقاربة بـ(كاد) ، وإثباتها ، ووقوع الفعل المقارَب بها إلى ما تظهره سياقات النصوص التي ورد فيها (كاد) للمقاربة في القرآن الكريم ، وعلى وفق تلك الدلالات فقط يمكن تقويم الأقوال التقعيديّة التي وضعت لدلالة (كاد) مثبتة ومنفية .

التمهيد

ثمة أصلان للفعل (كاد) نبّه عليهما أصحاب المعجمات أحدهما مصدره (كوداً) ، والآخر مصدره (كيداً)، يدل الأول على الممانعة ، قال الخليل (ت ١٧٥هـ) :" كاد يكُود كَوْداً ومكادة، تقول لمن يطلب إليك

شيئاً، فتأبى أن تعطيه : لا ، ولا مكادة ولا مهمة "[١] ، ويدلّ الأصل الثاني على المقاربة، قال ابن سيده (ت٤٥٨هـ):" كَاد يفعل كَذَا كيداً: قَارب وهمَّ"[٢] ، وقد ذكر الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ) الأصلين فقال :" الكود المنع ، وكاد يفعل ، وكِيد كَودا ومكاداً ومكادة : قارب ولم يفعل"[٣] ، وما يعنينا في هذا البحث الأصل الثاني الذي يدل على المقاربة . و(كاد) موضوعةٌ لمقاربة الأحداث التي تمثلها الأفعال ؛ لذا لا يكون خبرها إلا الفعل قال المبرد (ت ٢٨٥هـ) :" لِأَنَّهَا لمقاربة الْفِعْل فى ذَاته فهى بِمَنْزِلَة قَوْلك : جعل يَقُول، وَأخذ يَقُول ، وكرب يَقُول"[٤] ، فأصل وضع (كاد) أنّها تدلّ على مقاربة الفعل .

(١) العين : ٥/ ٣٩٥ ، وينظر تهذيب اللغة : ١٠ / ١٧٩ .

(٢) المحكم والمحيط الأعظم: ٧ / ١٠٤. وينظر معجم مقاييس اللغة : ٥ / ١٤٥ ، والصحاح : ٢ / ٥٣٢ .

(٣) القاموس المحيط : ٤٠٣ .

(٤) المقتضب : ٣/ ٧٥ .

الدلالة الرئيسة (دلالة انتفاء وقوع الفعل المُقارَب)

تدلُّ (كاد) على مقاربة الأفعال التي تدخل عليها ، ومقاربة الأفعال بـ(كاد) تعني دنو حصول الخبر[٥] ، ودنو حصوله لا يعني الحصول ، وإنْ كان قريباً جداً ، وهذا ما يَظهر في النصوص القرآنية التي جاءت فيها (كاد) لمقاربة الأفعال ، لذا فدلالة انتفاء وقوع الفعل الذي يلي (كاد) هي دلالة مشتركة بين تلك المواضع ، فهي دلالة رئيسة فيها سواء أكانت (كاد) مثبتة أو منفية . فالنفي والإثبات مقتصر تأثيرهما على دلالة المقاربة ولا يتعداها ليصل إلى خبر (كاد)، وهذا ما عليه جمهور النحويين[٦]، قال ابن هشام (ت ٧٦١هـ) :" حكمهَا حكم سَائِر الْأَفْعَال فِي أَن نَفيهَا نفي وإثباتها إِثْبَات ، وَبَيَانه أَنّ مَعْنَاهَا المقاربة وَلَا شكّ أَن معنى كَاد يفعل قَارب الْفِعْل ، وَأَنّ معنى مَا كَاد

(٥) ينظر التعريفات : ٣٢ .

(٦) ينظر الإيضاح في شرح المفصل : ٢/ ٩٢ ، وهمع الهوامع : ١/ ١٤٧ .

يفعل مَا قَارب الْفِعْل فخبرها منفي دَائِماً أما إِذا كَانَت منفية ، فَوَاضِح لِأَنَّهُ إِذا انْتَفَت مقاربة الْفِعْل انْتَفَى عقلاً حُصُول ذَلِك الْفِعْل"[١] .

ومن اللغويين والنحويين من جعل لنفي المقاربة بـ(كاد) وإثباتها أثراً في وقوع الفعل بعدها ، معتمدين في ذلك إظهارَ بعض المواضع التي جاءت فيها (كاد) منفيةً وقوعَ الفعل المقارَب وهو خبرها ، فذهبوا إلى أنّ نفي المقاربة إثباتٌ لوقوع الفعل المقارَب[٢]، واستدلوا لذلك بقوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾[٣] ففعل الذبح واقع بلا شك ، والمقاربة هنا منفية .

ولاءم هذا أن وجدوا أنّ بعض النصوص تُظهر انتفاء وقوع الفعل المقارَب حين تكون المقاربة مثبتة ، واستدلوا لذلك بقوله تعالى:﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾[٤] إذ من الثابت أنهم لم يفتنوه (صلّى الله عليه وآله وسلّم) . ومن سياقات هذين النصين وما شابههما قالوا إنّ إثبات (كاد) نفي ونفيها إثبات[٥] .

ومن اللغويين من ذهب إلى ذلك أيضاً، قال ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) :" وَإِذَا وَقَعَتْ كَادَ مُجَرَّدَةً فَلَمْ يَقَعْ ذَلِكَ الشَّيْءُ تَقُولُ: كَادَ يَفْعَلُ، فَهَذَا لَمْ يُفْعَلْ، وَإِذَا قُرِنَتْ بِجَحْدٍ فَقَدْ وَقَعَ، إِذَا قُلْتَ مَا كَادَ يَفْعَلُهُ فَقَدْ فَعَلَهُ"[٦]وكذا فعل ابن منظور[٧] (ت٧١١هـ). فإذا قلنا ـ على مبناهم ـ : (كاد الطالب ينجح) فمعناه ، لم ينجح ، وإذا قلنا : (ما كاد ينجح) ، فمعناه نجح بعد لأي وجهد(٨) . ونظر بعضهم إلى سياقات تُظهر انتفاء وقوع الفعل المقارب في الزمن الحاضر مع أنّ المقاربة منفية ، فقالوا بأنّ نفي المقاربة إثباتٌ لوقوع الفعل المقارَب إذا كان ماضياً ،

(١) مغني اللبيب : ٨٦٩ .
(٢) ينظر مغني اللبيب : ٨٦٩ .
(٣) البقرة : ٧١ .
(٤) الإسراء : ٧٣ .
(٥) ينظر مغني اللبيب : ٨٦٨ .
(٦) مقاييس اللغة : ٥ / ١٤٥ ، وينظر مجمل اللغة : ٢ / ٧٧٣ .
(٧) ينظر لسان العرب : ٣/ ٣٨٢ .
(٨) ينظر مغني اللبيب : ٧٣٨ ، والأشباه والنظائر: ٤ / ٢٤٦ ،

ونفيٌ لوقوعه إذا كان مضارعاً [١] ، متأثرين بدلالة السياق في قوله تعالى : ﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾[٢] والمعنى فيه نفي مقاربة الرؤية ، فلو قالوا بإثبات الرؤية لفسد المعنى .

وحقيقة الأمر أنّ وقوع خبر (كاد) ـ إن كان واقعاً ـ مدلول عليه بقرينة أخرى في السياق ، ولا علاقة لنفي المقاربة أو إثباتها بها، وقد صرّح بذلك الرضي الأستراباذي (ت ٦٨٤هـ) ، واتّخذه دليلاً لردّ رأي من يرى خلاف ذلك ، وهو قوله :" وأمّا كون نفيه إثباتاً فنقول ، أيضاً : إنْ قصدوا أنّ نفي الكود أي القرب في: ما كدت أقوم: إثبات لذلك المضمون ، فهو من أفحش الغلط ، وكيف يكون نفي الشيء إثباته ، وكذا إنْ أرادوا أنّ نفي القرب من مضمون الخبر إثباتٌ لذلك المضمون ، بل هو أفحش ؛ لأنّ نفي القرب من الفعل أبلغ في انتفاء ذلك الفعل من نفي الفعل نفسه ، فإنّ: ما قربتُ من الضرب ، آكدُ في نفي الضرب من : ما ضربتُ ، بلى ، قد يجئ مع قولك : ما كاد زيد يخرج ، قرينة تدل على ثبوت الخروج بعد انتفائه ، وبعد انتفاء القرب منه، فتكون تلك القرينة دالةً على ثبوت مضمون خبر كاد في وقت ، بعد وقت انتفائه وانتفاء القرب منه ، لا لفظ كاد ، ولا تنافي بين انتفاء الشيء في وقت ، وثبوته في وقت آخر، وإنما التناقض بين ثبوت الشيء وانتفائه في وقت واحد "[٣] ، فنفي كاد هو نفي للمقاربة ، وإثباتها إثبات لها ، وعلى وفق هذا النظر يمكن تحييد وقوع الأمر المقارب ، وربط الدلالة عليه بقرينة أخرى موجودة في السياق . ويتضح من ذلك أنّ دلالة انتفاء وقوع خبر (كاد) في المواضع كلها دلالةٌ رئيسة لا تتأثر بنفي المقاربة ، أو إثباتها .

(١) ينظر الإيضاح في شرح المفصل : ٢/ ٩٣ ، وشرح الكافية: ٤/ ٢٢٥ .

(٢) النور : من الآية ٤٠ .

(٣) شرح الرضي على الكافية : ٤/ ٢٢٣ ، وينظر : دلائل الإعجاز: ٢٧٥ .

الدلالات الفرعيّة لإثبات المقاربة بـ(كاد)

تتضافر دلالة إثبات المقاربة أو نفيها وقرائن السياق الأخر ، فينتج عن ذلك دلالاتٌ فرعيّة تُظهرها السياقات ، وهي مستقلة عن دلالة انتفاء وقوع الفعل المقارَب . وسنتناولُ فيما يأتي المواضعَ التي أُثبتت فيها المقاربة ، ونستظهر تأدية السياق دلالاتٍ فرعيّةً تصطف إلى جانب الدلالة الرئيسة التي تمثّلت في امتناع وقوع الفعل المقارَب ، وثمة ثلاثُ دلالات فرعيّة صاحبت دلالةَ امتناع وقوع الفعل المقارَب ، وهي :

أولاً ـ همّة الفاعل في تحقيق الفعل

جاءت (كاد) في مواضع ذات دلالات انفعالية تُظهر مشارفةَ الفاعلِ فيها الوصولَ إلى تحقيق الفعل إلّا أنّ تدخلاً منعه من ذلك ، نحو ما يظهر في قوله تعالى : ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[١] ، فما اعتمل في قلب أم موسى من خوفها على ابنها وصل بها إلى ذروة القرب من أن تُفشي أمرَه ، فقد" رَوَى سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كادت تقول وا ابناه!"[٢] ، وتُظهر القرائن المقالية ما كانت تكابده أم موسى فقد قربت أن تفشي الأمر لولا تثبيت الله سبحانه وتعالى فألهم قلبها الصبر وشدّده وقوّاه[٣].

وفي السمت نفسه كانت بعض أخبار (كاد) المثبتة أفعالاً قارب أن يُوقعها أعداءُ الرسالاتِ السماويّة ، إذ كانوا يتحينون الفرص برسلهم فقاربوا أن يَفتكوا بهم ، من ذلك قوله تعالى على لسان هارون مخاطباً موسى (عليهما السلام) :﴿ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾[٤] ، قال البيضاوي (ت ٦٨٥هـ) :" والمعنى بذلت وسعي في كفهم حتى قهروني واستضعفوني وقاربوا قتلي"[٥] ، فبنو إسرائيل عُرفوا بالتمرّد على أنبيائهم وخروجهم عن طاعتهم وقتلهم، وقد كانوا قاربوا أن يُوقعوا القتل

(١) القصص : ١٠ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ١٣ / ٢٥٥ .

(٣) ينظر : معاني القرآن وإعرابه : ٤ / ١٣٤ .

(٤) الأعراف : من الآية ١٥٠ .

(٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ٣/ ٣٥ .

بهارون (عليه السلام) .

وفي هذا المسلك جاء قوله تعالى :﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾[١] ، قال الفرّاء (ت٢٠٧ هـ):" يعني مشركي أهل مكة ، كانوا إِذَا سَمِعوا الرجل من المسلمين يتلو القرآن كادوا يبطشون بِهِ"[٢]، فقد أوصلهم فرطُ الغيظ والغضب إلى حدّ أن يثبوا على الذين يتلون القرآن[٣].

فظاهر في المواضع الثلاثة السابقة أنّ الفاعلين قربوا من إيقاع الفعل ، وهمّوا بإنجازه لولا تدخلاً حال بينهم وبين إيقاعه .

ثانياً ـ ضعف الفاعل المتحدَّث عنه قُبالة ما سلّط عليه

يَظهر في هذا القسم من النصوص أنّ المتّصفين بخبر (كاد) قد شارفوا الوقوع في الفعل من دون أن يقعوا فيه ، ومن دون أن تكون لهم إرادةٌ في ذلك ورغبة ، مع إظهار قوةِ ما سُلّط عليهم لتحقيقه . ومنه قوله تعالى:﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾[٤]، إذ بلغت الشدّة بالمهاجرين والأنصار مبلغاً جعلت فريقاً منهم يصل حدّ عدم التحمّل لولا أنْ منّ الله عليهم فثبّتهم ولم تُزَغ قلوبُهم ، قال الزجّاج (ت٣١١ هـ):" وكان في ذلك الوقت حرٌّ شديد ، وكان القوم في ضيقة شديدة ، وكان الجمل بين جماعة يَعْتَقِبُونَ عليه ، وكانوا من الشدّة والفقْر ربّما اقتسم الثمرةَ اثنان وربّما مصَّ الثمرةَ الجماعةُ ليشربوا عليها الماءَ ، وربّما نَحرُوا الإبلَ فشربوا من ماءِ كُرُوشِهَا من الحرّ . فأعلمَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ أنَّه قد تاب عليهم من بعد ما كاد يُزيغُ قُلوبَ فريقٍ منهم"[٥] ، فخبر (كاد) لم يقع سواء

(١) الحج : من الآية ٧٢ .
(٢) معاني القرآن : ٢ /٢٣٠ .
(٣) ينظر البحر المديد : ٣ / ٥٥٤ .
(٤) التوبة : ١١٧ .
(٥) معاني القرآن وإعرابه : ٢ / ٤٧٤ .

أكان هو عدول فريق من الأنصار والمهاجرين عن الحق ، كما يرى أبو عبيدة[١] (ت٢٠٩هـ) ، أو كان رجوعهم عمّا أُمِروا به وهو رأيُ الزجّاج [٢].

ومن هذا القسم قوله تعالى:﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾[٣] ، إذ تحكي هذه الآية الكريمة الفعل العظيم للرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ، الذي جعل جفاة المشركين وقساتهم يعترفون أنّهم كادوا يتركون أوثانهم من قوة ما رأوه من براهينه العقلية ، وتصديق قولِه فعلَه ، قال القرطبيّ (ت٦٧١هـ) : "أَيْ قَالُوا قَدْ كَادَ أَنْ يَصْرِفَنَا. (عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها) أَيْ حَبَسْنَا أَنْفُسَنَا عَلَى عبادتها"[٤]، وقال أبو حيان (ت ٧٤٥هـ):"وَقَوْلُهُمْ إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنا دَلِيلٌ عَلَى فَرْطِ مُجَاهَدَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي دَعْوَتِهِمْ، وَبَذْلِهِ قُصَارَى الْوُسْعِ وَالطَّاقَةِ فِي اسْتِعْطَافِهِمْ مَعَ عَرْضِ الْآيَاتِ وَالْمُعْجِزَاتِ حَتَّى شَارَفُوا بِزَعْمِهِمْ أَنْ يَتْرُكُوا دِينَهُمْ إلى دِينِ الْإِسْلَامِ لَوْلَا فَرْطُ لَجَاجِهِمْ وَاسْتِمْسَاكِهِمْ بعبادة آلهتهم"[٥] . ففي النصين السابقين كان خبر (كاد) فعلاً قريباً من أن توقعه مجموعة غير راغبة فيه ، نتيجة ضغوط خارجيّة كبيرة ذات أثر عَقَديّ ، وعلى الرغم من ذلك فإن أخبار (كاد) لم تكن واقعةً .

ثالثاً ـ دلالة المبالغة بقوّة ما يوجب وقوع الفعل

وصفت بعض النصوص القرآنية مجموعة من الأفعال بالقوة الكبيرة ، وأرادت أن تُظهر للمتلقي مدى قوة تلك الأفعال التي تستوجب نتائجَ خطيرةً لو تُركت لشأنها ، لكنّ النتائج لم تقع بل شارفت الوقوع ، من ذلك قوله

(١) ينظر مجاز القرآن : ١/ ٢٧ .
(٢) ينظر معاني القرآن وإعرابه : ١/ ٢٧٠ .
(٣) الفرقان : ٤٢ .
(٤) الجامع لأحكام القرآن : ١٣ / ٣٥ .
(٥) البحر المحيط : ٨ / ١٠٩ .

تعالى :﴿وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً ۞ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا ۞ تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا ﴾[١] ، فنسبة الولد إلى الله ـ تعالى عن ذلك علواً كبيراً ـ كلمةٌ من الشناعة بمكان "بحيث لو تصوّرتْ بصورة محسوسة لم تتحمّلها هذه الأجرام العظام وتفتّت من شدتها ، أو أنّ فظاعتها مُجلِبة لغضب الله بحيث لولا حلمه لخرّب العالم وبدّد قوائمه غضباً على من تفوّه بها"[٢] .

وإلى مثل هذه الدلالة ينصرف استعمال (كاد) في قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[٣]، قال ابن عطية (ت٥٤٢ هـ):" والمعنى فيهما : يتصدعن ويتشققن من سرعة جريهنّ خضوعاً وخشيةً من سلطان الله تعالى وتعظيماً له وطاعة "[٤] . فالسماوات شارفت التصدّع ، ولم تتصدّع ؛ لعظمة سرعة جريها وخضوعها ، أو لكفر فريق من الناس بربهم بعد ما تمتعوا به من آلائه ورأوه من دلائل وجوده[٥] .

ويظهر توظيف قرب الوقوع في الفعل والدنو منه كأنه يُلابس الوقوعَ ويُخالطه ؛ لإظهار المبالغة ، كما في قوله تعالى :﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ...﴾[٦]، قال البيضاوي :" قوله تعالى (يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ) مُبَالَغَةٌ فِي حُسْنِهِ وَصَفَائِهِ وَجَوْدَتِهِ"[٧].

والذي يظهر من تتبع النصوص التي وردت فيها (كاد) مثبتة أنّ دلالاتها

(١) مريم : ٨٨ – ٩٠ .
(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٤ / ٢٠ .
(٣) الشورى : ٥ .
(٤) المحرر الوجيز : ٥ / ٢٦ .
(٥) ينظر اللباب في علوم الكتاب : ١٧ / ١٦٦ .
(٦) النور : من الآية ٣٥ .
(٧) أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ١٢ / ٢٥٩ .

الفرعية تنتظم جميعاً في الأقسام الثلاثة السابقة إلّا موضعاً واحداً ، وهو قوله تعالى:﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾[١] ، وقد حاول اللغويون والمفسرون استظهار وجهِ إثبات المقاربة بـ(كاد) بلحاظ انتفاء وقوع خبرها ، فذهبوا في ذلك مذاهبَ مختلفةً ، منها قول ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) :" أَكادُ أُخْفِيها أي أسترها من نفسي "[٢] ، وقال ابن جني (ت٣٩٢هـ) :" أي أكاد أزيل عنها خفاءها ، وخفاء كلّ شيء غطاؤه ، ومن ذلك خفاء القربة للكساء الذي يكون عليها وجمعه أخفية ... فأخفيها في أنه أزيل خفاءها بمنزلة قوله لو أننا نشكيها أي نزول لها عما تشكوه "[٣] . وهذا التخريج معتمدٌ على معنى السلب ، قال أبو البركات الأنباريّ (ت ٥٧٧هـ) :" معنى قولك : أعربتُ الكلامَ ؛ أي: أزلتُ عَرَبه ، وهو فساده ، وصار هذا ؛كقولك : أعجمتُ الكتابَ، إذا أزلت عجمته ، وأشكيتُ الرجلَ ، إذا أزلت شكايته ، وعلى هذا حَمل بعض المفسرين قوله تعالى: ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾؛ أي: أزيل خفاءها ؛ وهذه الهمزة تسمّى : همزة السَّلب"[٤].

وثمة من يجمع بين كون الخفاء بمعنى الستر والإخفاء بمعنى الإظهار ، جاء في تفسير اللباب :"أنّ الخفاء بمعنى الستر ، ومتى أزال سترها فقد أظهرها ، والمعنى : أنها لتحقّق وقوعها وقربها أكاد أظهرها لولا ما تقتضيه الحكمة من التأخير"[٥] . والرأيان السابقان يتماهيان وما عليه الدلالة الرئيسة وهي انتفاء وقوع الفعل المقارَب .

ونُسب للأخفش (ت٢١٥هـ) أنّه يرى أنّ (كاد) في هذه الموضع زائدةٌ ، وتابَعَه فريق

(١) طه : ١٥ .

(٢) غريب القرآن : ٢٣٥ .

(٣) سر صناعة الإعراب : ١/ ٥١ ، وينظر مجاز القرآن : ٢/ ١٧ .

(٤) أسرار العربية : ٤٤ .

(٥) اللباب : ١٣ / ١٩٩ .

من النحويين والتقدير عندهم : أنّ الساعة آتيةٌ ، أخفيها لتُجزى كلُّ نفس بما تسعى[١]. ولا يخفى ما في هذا الرأي من محاولة لملاءمة وقوع الفعل المقارَب وهو إخفاء يوم القيامة لما تقدّمه ؛ إذ ينافي ذلك الوقوع الدلالة الرئيسة لنفي المقاربة وإثباتها ، والقول بزيادة (كاد) هنا من شأنه أن يحقّق تلك الملاءمة .

وقد ظهر من عرض دلالات أقسام استعمال (كاد) مثبتة أنّ الفعل بعدها غيرُ واقع ، فضلاً عن استئثار كلّ مجموعة من تلك المواضع بدلالة فرعيّةٍ متحصّلةٍ من السياق تُظهِر همّة الفاعل في نية إيقاع الفعل ، أو ضعفاً يعتري المقتربين من الوقوع في الفعل متأثرين بفعل قويّ يدفعهم للوقوع فيما اقتربوا منه ، أو المبالغة في الدلالة على الخطر والقوة.

الدلالات الفرعيّة لنفي المقاربة بـ(كاد)

يُظهر سياق المواضع التي جاءت فيها (كاد) منفية أنّها تشترك في الدلالة الرئيسة أيضاً وهي امتناع إيقاع خبر (كاد) وهو الفعل الذي يليها ، ويرافق هذه الدلالة الرئيسة دلالتان فرعيّتان إحداهما صعوبة الفعل – الذي هو خبر (كاد) – على الفاعل وتعسّره عليه ؛ لأنّه لا يريد فعله ، والأخرى أنّه خارج عن قدرته وتحمله ، وفيما يأتي تفصيلُ دلالة امتناع وقوع الفعل بلحاظ الدلالتين الفرعيّتين لتلك الاستعمالات :

أولاً ـ امتناع الفاعل عن إيقاع الفعل لأنه لا يُريد إيقاعه

تَظهر هذه الدلالة في موضع وحيد هو قوله تعالى :﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾[٢]، إذ يظهر من سياق هذه النص باعتماد قرائن مختلفة أمران ، الأول وقوع الفعل المقارب بـ(كاد) المنفية ، والآخر انتفاء وقوعه ، وقد أوقع ذلك بعض النحويين واللغويين[٣] بلبس جعلهم يضطربون في دلالة نفي (كاد) في هذا الموضع .

(١) ينظر الجامع لأحكام القرآن:١١/ ١٨٤، والبحر المحيط: ٦ / ٢٣٣، ٤٦٢ ، وهمع الهوامع : ١ /١٣٧ .

(٢) البقرة : من الآية ٧١ .

(٣) ينظر صفحة ٣ من هذا البحث .

فإنّ تردّد بني اسرائيل في ذبح البقرة له ما يبرّره عندهم ، نحو ما ذكره المفسرون من فحش غلائها ، أو خوفاً من الفضيحة بعد معرفة القاتل[١] ، وهذا التردّد ظهر امتناعاً عن الفعل ، وكأنّ صدر الكلام (فذبحوها) يُخالف عجزه (وما كادوا يفعلون)، فالأوّل تصريح بوقوع الفعل ، والثاني امتناع عن مقاربة الفعل، وهنا تدخل مسألة المناسبة بين صدر الكلام وعجزه ؛ ليلتئم معنى الكلام ويظهر مراده ، قال ابن عاشور:"إنّ ﴿ ما كادوا يفعلون ﴾ يقتضي بحسب الوضع نفي مدلول (كاد) فإن مدلولها المقاربة ونفي مقاربة الفعل يقتضي عدم وقوعه بالأولى ، فيقال أنّى يجتمع ذلك مع وقوع ذبحها بقوله : ﴿ فذبحوها ﴾؟. فأمّا على وجه الاستئناف فيمكن الجواب بأنّ نفي مقاربة الفعل كان قبل الذبح حين كرّروا السؤال، وأظهروا المِطال، ثم وقع الذبح بعد ذلك "[٢].

وما في صدر الكلام من خلاف لما في عجزه جعل بعض النحويين واللغويين يخلطون بين دلالة نفي (كاد) على نفي المقاربة ، وما تقدم في السياق من دلالة على الوقوع ، فكان قولهم (إنّ نفي (كاد) إثباتٌ) تأثراً بهذا الموضع ، وتخريجاً لما يظنونه تناقضاً في وقوع الفعل المقارَب بـ(كاد) ، وكان أولى بهم اتّباع من ذهب إلى أنّ وقوع الفعل وانتفاء مقاربته مقبولٌ بلحاظ أنّ ثمّة قرينةً " دالة على ثبوت مضمون خبر كاد في وقت ، بعد وقت انتفائه وانتفاء القرب منه"[٣] .

ولكي نصل إلى دلالة نفي المقاربة بـ(كاد) في الآية الكريمة ينبغي التمييز بين ما تحصّل من معنىً بعد تضافر الجملة التي وردت فيها (كاد) ، والجملة التي سبقتها ـ إذ كان المعنى ذبحوها لكن بعد مماطلة طويلة ـ وبين انتفاء وقوع الفعل المقارب بـ(كاد) وهو ذبحهم البقرة، ولكي يناسب الذبح الذي أثبتته الجملة السابقة ، خُرّج بأن الامتناع عن مقاربة الذبح كان في غير وقت الذبح ، أو أنّه دالٌ

(١) ينظر التبيان في تفسير القرآن : ١ / ٣٠٢ ، والبحر المديد : ١ / ١١٩ .

(٢) التحرير والتنوير : ١/ ٥٧٧.

(٣) شرح الرضي على الكافية : ٤/ ٢٢٣ .

على المماطلة [١]. ومهما يكن من أمر دلالة هذا الموضع فإنّه لا يَخْرج عن إظهار صعوبة الفعل المنفي بـ(كاد) على الفاعل وعدم إرادته وقوعَهُ، حتى إنّه لا يقارب وقوعه ، فجاء التعبير" بنفي مُقَاربة الفعل عن شدَّة تعنُّتهم ، وعسرهم في الفعل "[٢]. قال الزركشيّ(ت ٧٩٤هـ):" ووجهه أيضاً إخبار عن حالهم في أوّل الأمر ، فإنّهم كانوا أوّلاً بُعداء من ذبحها بدليل ما ذكر الله عنهم من تعنتهم ، وحصول الفعل إنّما فهمناه من دليل آخر وهو قوله فذبحوها"[٣] .

ثانياً ـ عجز الفاعل عن إيقاع الفعل لقصوره

تُظهر المواضع الباقية التي وردت فيها (كاد) منفيّة امتناع الفاعل عن إيقاع الفعل عجزاً منه وقصوراً ، من ذلك قوله تعالى:﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ۝ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾[٤]، ولا ينافي ما عليه صدر الكلام (يتجرعه) من دلالة على الوقوع ، ما يدلّ عليه (ولا يكاد يسيغه)؛ لأن السوغ "انحدارُ الشراب في الحلق بسهولة وقَبول نفس "[٥] ، فنفي دخول ذلك السائل إلى الحلق بسهولة وقبول نفس ، لا يناقض تجرّعه الذي أثبته النصّ ، ولعلّ معنى شدّة العذاب والتألّم والغصّة التي تلحق الذي يتجرّع ذلك السائل إنّما يزداد بغصب ذلك الشارب على التجرّع مع عدم الإساغة ، والتجرّع هو " تناول المشروب جرعة جرعة على الاستمرار"[٦]. قال الرازيّ (ت٦٠٦هـ) :" إلّا أنّ ذلك ليس إساغة ، لأن الإساغة في اللغة إجراء الشراب في الحلق بقبول النفس واستطابة المشروب

(١) ينظر دلائل الإعجاز : ٢٧٦ ، و الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل : ١/ ١٥٢ ، والتحرير والتنوير : ١/ ٥٥٨ .

(٢) اللباب في علوم الكتاب : ١/ ٣٩٦ .

(٣) البرهان في علوم القرآن: ٤ / ١٣٧ .

(٤) إبراهيم : ١٦ - ١٧ .

(٥) إرشاد العقل السليم : ٥/ ٣٩ .

(٦) التفسير الكبير : ١٩ / ٨٠ ، وينظر تهذيب اللغة : ١/ ٢٣٢.

والكافر يتجرّع ذلك الشراب على كراهية ولا يسيغه "[١] .

فبدا واضحاً من ذلك أن دلالة نفي (كاد) في هذا الموضع هي نفي مقاربة الفعل لعجز الفاعل أن يوقعه . أما الواقع فهو التجرّع فحسب ؛ لأنّه مكره عليه [٢] ، وهو يناسب عدم وقوع الإساغة .

ونرى ما مرّ من عجز الفاعل عن إيقاع الفعل دلالةً لقوله تعالى :﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾[٣] ، فالقومُ المتحدّث عنهم لا يُقاربون إيقاع فقه الحديث وفهمه ، جاء في التبيان في تفسير القرآن :" معناه لا يقاربون فيه معنى الحديث الذي هو القرآن ؛ لأنّهم بعيدون منه بإعراضهم عنه ، وكفرهم به"[٤].

فمَن كان شأنه العجز عن إدراك آيات الله وظواهر قدرته العظيمة ، فهو بمنأى عن الفهم والتدبّر، قال أبو السعود(ت ٩٨٢ هـ) :" لا يكادون يفقهون حديثاً من الأحاديث أصلاً فيقولون ما يقولون ، إذ لو فقِهوا شيئاً من ذلك ، لفهموا هذا النصَّ ، وما في معناه ، وما هو أوضحُ منه من النصوص القرآنية الناطقةِ بأنّ الكلَّ فائضٌ من عند الله تعالى وأنّ النعمةَ منه تعالى بطريق التفضّلِ والإحسانِ ، والبليةَ بطريق العقوبةِ على ذنوب العبادِ"[٥].

وناسب هنا التعمق في وصفهم بالغباء والبلادة بأن نُفيت مقاربتهم الفعل ، قال أبو حيان :" وبالغ تعالى في قلة فهمهم وتعلقهم، حتى نفى مقاربة الفقه ، ونفي المقاربة أبلغ من نفي الفعل"[٦]، وقد ذهب ابن عاشور في دلالة هذا النصّ وما شابهه إلى تخريج نفي

(١) التفسير الكبير : ١٩ / ٨٠ .
(٢) ينظر معاني القرآن : ٢/ ٢٢٠ .
(٣) النساء : من الآية ٧٨ .
(٤) التبيان في تفسير القرآن : ٣ / ٢٦٤ .
(٥) إرشاد العقل السليم : ٢/ ٢٠٥ .
(٦) البحر المحيط : ٣/ ٧١٨ .

المقاربة بـ(كاد)، بأنها بمعنى مقاربة النفي ، فقال :" فقوله : (لا يكادون) يجوز أن يكون جارياً على نظائره من اعتبار القلب ، أي يكادون لا يفقهون ، كما تقدّم عند قوله تعالى :(فذبحوها وما كادوا يفعلون) فيكون فيه استبقاءٌ عليهم في المذمّة "[١] ، وهو مما لا ينسجم مع أصل الوضع اللغوي للتركيب في هذا الاستعمال من جهة ، ومع ما عليه السياق من ذم هذا الصنف من الناس . وهو ما أشار إليه ابن عاشور نفسه فقال :" ويجوز أن يكون على أصل وضع التركيب، أي لا يقارِبون فهم الحديث الذي لا يعقله إلاّ الفطناء ، فيكون أشدّ في المذمّة"[٢]، وهذا تصريحٌ منه بأنّ حمل نفي (كاد)على نفي مقاربة الفعل أبلغ وأكثر ملاءمة لسياق الآية.

وليس بعيداً عن دلالة الموضع السابق دلالة قوله تعالى ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾[٣] ، فدلالة نفي المقاربة بـ(كاد) هنا هي نفي إيقاع الفاعل الفعلَ قصوراً منه وعجزاً ، وقُرئ(يفقهون) قراءتين " إحداهما بفتح الياء والقاف ، يعني أنّهم لا يفهمون كلام غيرهم . والقراءة الثانية بضم الياء وكسر القاف ، أي لا يَفهم كلامَهم غيرُهم"[٤]. وعلى الرغم من أنّ الآية صريحة بأنهم لا يقاربون فهم القول ، أو إفهامه على القراءة الثانية ، إلّا أنّ ثمة إشارات في الآية إلى أنّ تواصلاً وقع بين ذي القرنين وبين هؤلاء القوم ولو بقدر محدود ، فجاءت هنا محاولة المفسرين في التوفيق بين عدم مقاربة الفهم والإفهام ، وبين التواصل الذي كان ، قال الطبرسيّ (ت ٥٤٨هـ) :" أي خُصوا بلغة كادوا لا يعرفون غيرها قال ابن عباس : كادوا لا يفقهون كلام أحد ولا يفهم الناس كلامهم و إنّما قال (لا يكادون) لأنّهم

(١) التحرير والتنوير: ٥ / ١٣٣ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الكهف : ٩٣ .

(٤) النكت والعيون : ٣/ ٣٤١ .

فهموا بعض الأشياء عنهم وإن كان بعد شدّة ولذلك حكى الله عنهم أنّهم (قالوا يا ذا القرنين إنّ يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض) ويجوز أن يكون الله سبحانه فهّم ذا القرنين لسانَهم كما فهم سليمان (عليه السلام)"[١] .

ومن مواضع إظهار عجز الفاعل عن إيقاع الفعل الذي دخلت عليه (كاد) المنفية، الموضع الذي اتّهمَ فيه فرعون نبيَّ الله موسى (عليه السلام) بأنّه لا يُبِين في كلامه وهو قوله تعالى :﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾[٢] ، لكنّ ما يُظهره السياق من إجابة الله تعالى سؤلَ موسى (عليه السلام) حين حلّ عقدةً من لسانه ، يُظهر خلاف ما يشير إليه نفي المقاربة بـ(كاد) وهي الدلالة الرئيسة (انتفاء وقوع الفعل المقارَب)، لذا التمس المفسرون تخريجاً لذلك ، قال الطوسيّ (ت٤٦٠هـ):" إنّ الله حلّ أكثر ما كان بلسانه إلّا بقيةً منه بدلالة قوله (ولا يكاد يُبِين) في قول أبي عليٍّ . وقال الحسن : إنّ اللهَ استجاب دعاءَه ، فحلّ العقدة من لسانه . وهو الصحيح ، لقوله تعالى : (قد أوتيت سؤلك يا موسى) ويكون قول فرعون (ولا يكاد يُبِين) أنّه لا يأتي ببيان يُفهم كذباً عليه ؛ ليغوي بذلك الناس ويصرف به وجوههم عنه ... وقال الزجّاج للثغة كانت في لسانه"[٣]، وقال الطبرسيّ :" و إنّما عيّره بما كان في لسانه قبل" [٤] . وجاء في المحرر الوجيز :" ولو فرضناه زال جملةً لكان قول فرعون سبّاً لموسى بحالته القديمة "[٥] .

وقد يكون عدم الإبانة المقصود متأتياً من جانب أنّه لا يملك ما يُدَعّم به قوله من قوّة ، قال الآلوسي (ت١٢٧٠هـ) :" وأراد اللعين أنّه عليه السلام ليس معه من العدد وآلات الملك والسياسة ما يعتضد به ، وهو في نفسه مخلٌّ بما يُنعت به الرجال من اللَّسَن وإبانة

(١) مجمع البيان : ٦ / ٣٨٧ .
(٢) الزخرف : ٥٢ .
(٣) التبيان في تفسير القرآن : ٧/ ١٧٠ .
(٤) مجمع البيان : ٩ / ٨٦ .
(٥) المحرر الوجيز : ٤ /٤٢ .

الكلام"[١] . وهذا يظهر أنّ بعض المفسرين واللغويين قد ساروا في مسلك تخريج ما عليه انتفاء وقوع الفعل بنحو يلائم القرائن السياقية التي ذكرت في هذا الموضع ، أو في مواضع أخرى تناولت قصة نبي الله موسى (عليه السلام) ، حتى إذا استنفدوا تلك التخريجات ، قالوا إنّ هذا الاستعمال جارٍ على سُنن العرب فهو دالٌّ على الإبطاء وأنّ الفعل لا يَحصُل إلّا بعد الشدّة والعناء . قال الكفويّ(ت١٠٩٤هـ) :" قد يكون للاستبطاء وإفادة أنّ الخبر لم يقع إلّا بعد الجهد ، وبعد أن كان بعيداً في الظنّ أن يقع كما في قوله تعالى : (ولا يكاد يبين) ، أي يبطئ في التكلّم ولا يتكلم إلّا بعد الجهد والمشقة لما به من المذمة "[٢] .

وقد تنبو أقوال بعض المفسرين عن الانسجام مع ما عليه التركيب اللغوي في استعمال (كاد) في هذا الموضع ضناً منهم بالبحث عن الغرض من ادّعاء فرعون بحقّ نبي الله موسى (عليه السلام) ، واستسهالاً لما ذهب إليه بعض النحويين ، من ذلك ما ذكره ابن جزي (ت٧٤١هـ) في مُجمل الآراء في الآية الكريمة ، إذ قال :" وقوله (ولا يكاد يُبِين) يقتضي أنّه كان يُبِين ؛ لأنّ كاد إذا نُفيت تقتضي الإثبات "[٣] ، وليس خفياً أنّ مثل هذا الرأي مما يأباه ما بُنيَ عليه كلام فرعون من الاحتجاج بعدم إبانة موسى (عليه السلام) ، فالمقام ينافي أن تكون الدلالة هنا إثبات الفعل المقارَب ، وهو الإبانة .

ومن مواضع عجز الفاعل عن إيقاع الفعل قصوراً منه ، قوله تعالى :﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾[٤] ، فالسياق يُظهر امتناع وقوع الرؤية ؛ لكثرة ما يحول دونها ، لذا عبّرت الآية بما هو أبلغ من انتفاء الفعل وهو انتفاء مقاربة الفعل ، قال

(١) روح المعاني : ١٣ / ٨٩.
(٢) الكليات : ٧٥٠ .
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل : ٢/ ٧٢ .
(٤) النور : ٤٠ .

الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) :" وكاد لمقاربته على سبيل الوجود والحصول ، تقول كادت الشمس تغرب ، تريد أنّ قربها من الغروب قد حصل . وقوله عزّ وجلّ :(إذا أخرج يده لم يكد يراها) على نفي مقاربة الرؤية ، هو أبلغ من نفي نفس الرؤية "[١].

وقد تأثّر بعض المفسرين بما ذهب إليه بعض النحويين في نفي (كاد) في هذا الموضع ؛ فاخرجوا المعنى منسجماً مع مذاهبهم في نفيها ، من ذلك قول ابن جزي :" وقيل بل رآها بعد عسر وشدّة ؛ لأنّ كاد إذا نُفيت تقتضي الإيجاب وإذا أوجبت تقتضي النفي "[٢] . وقد تصدّى الرازي إلى بيان عَوار هذا الرأي اعتماداً على السياق بعد أن ذكر المعنيين على مباني النحويين ، فالأوّل عنده " إثبات في اللفظ لكنه نفي في المعنى ... معناه أنه رآها . والثاني أنّ كاد معناه المقاربة فقوله : (لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا) معناه لم يقارب الوقوع ومعلوم أنّ الذي لم يقارب الوقوع لم يقع أيضاً ، وهذا القول هو المختار والأول ضعيف لوجهين ، الأوّل أنّ ما يكون أقلّ من هذه الظلمات ، فإنّه لا يُرى فيه شيء فكيف مع هذه الظلمات . الثاني أنّ المقصود من هذا التمثيل المبالغة في جهالة الكفّار ، وذلك إنّما يحصل إذا لم توجد الرؤية ألبتة مع هذه الظلمات"[٣] .

والذي يظهر للبحث بعد هذا التطواف في مواضع استعمال (كاد) في القرآن الكريم مثبتةً ومنفيةً ، أنّها باقية على معناها في الحالتين كلتيهما ، فهي دالة على المقاربة . وإثبات المقاربة أو نفيها لا يغيّر من حقيقة أن المقاربة تعني عدم وقوع الفعل ، فإن كان السياق يظهر وقوع الفعل المقارَب فبما يوكله إلى قرينة أخرى فيه . ولا جرم أنّ تواشج قرائن السياق ـ ومنها القرائن التركيبيّة التي يدور في فلكها نفي (كاد) وإثباتها ـ يُظهر للمتلقي المعنى النهائي دفعةً واحدة ، وهو المتألّف من الدلالة الرئيسة ونعني بها دلالة انتفاء وقوع الفعل المقارَب ، والدلالات الفرعيّة التي

(١) المفصّل في صنعة الإعراب : ٣٥٩ .

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل : ٢ / ٧٢ .

(٣) التفسير الكبير : ٢٤ / ٤٠١ .

يظهرها السياق ، والناظر إلى التفاصيل يمكنه أن يحدّد لكل قرينة حظها من رسم لوحة المعنى ، دون أن يبخس الأخريات نصيبها .

الخاتمة

في ختام البحث هذه أهم النتائج التي توصل إليها :

١- أظهرت النصوص القرآنية التي جاءت فيها المقاربة بـ(كاد) منفيةً ومثبتةً دلالةً رئيسة هي انتفاء وقوع الفعل المقارَب ، ودلالاتٍ فرعيّة هي نتاج تواشج قرائن السياق ودلالة نفي المقاربة وإثباتها .

٢- تُظهر بعض النصوص أنّ الفعلَ المقارَب قد وقع ، وقد دُلّ على ذلك بقرائن السياق ، وكان لهذا الوقوع أثرٌ في خلط بعض اللغويين ، ومن خلفهم بعض المفسرين بين الدلالة المتحصلة من إثبات (كاد) أو نفيها ، وبين الدلالة المتحصلة من السياقات العامة التي تنتمي إليها النصوص التي استعملت فيها (كاد) ، فتنوعت من جرّاء ذلك أقوال النحويين والمفسرين في دلالة نفي المقاربة بـ(كاد) وإثباتها .

٣- لو أتيح للنحو العربي أن تُراجع قواعده على وفق منهج وصفي دقيق يعتمد الاستعمال العربيّ الفصيح ، ويلزم نفسه الاستقراء التام والشامل ، لأمكننا أن نستغني عن كثير من الآراء التي لا تجد لها حظاً من ملاءمة ما عليه الاستعمال في النصوص العربية الفصيحة .

٤- برع في العربية علماء شذبّوا المدونة النحويّة استناداً إلى النظر في كلام العرب والتأمّل في مقاصد خطابهم ، فوضعوا الأمور في نصابها وأشاروا إلى الركيك من آراء سابقيهم ، وأَوْلَوا النصَّ عناية تفوق الموروث القواعديّ ، فتفتحتْ على أيديهم أبوابٌ للمعاني والمقاصد كانت قد أغلقتها بعض الآراء ، أو قللت من شأنها بذكر معانٍ موازيةٍ اعْتُقدتْ سلامتُها .

والحمد لله رب العالمين وصلّى الله على محمد وآله الميامين وسلّم تسليماً كثيراً.

المصادر

- القرآن الكريم .
- إرشاد العقل السليم ، أبو السعود العمادي ، دار إحياء التراث العربي بيروت .
- أسرار العربية ، أبو البركات الأنباري (دار الأرقم بن أبي الأرقم ، ١٩٩٩م) ط١ .
- الاشباه والنظائر، جلال الدين السيوطي ، تحقيق عبد العال سالم مكرم (بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٥).
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ناصر الدين البيضاوي ، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي (دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٤١٨هـ) ط١ .
- الإيضاح في شرح المفصل ، جمال الدين ابن الحاجب ، تحقيق موسى بناي العليلي (بغداد ، دار إحياء التراث العربي).
- البحر المحيط ، أبو حيان الأندلسي، تحقيق صدقي محمد جميل ، دار الفكر – بيروت ،١٤٢٠ هـ .
- البحر المديد ، ابن عجيبة ، تحقيق أحمد عبد الله القرشيّ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢، ٢٠٠٢م .
- البرهان في علوم القرآن ،أبو عبد الله بدر الدين الزركشيّ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعرفة ، بيروت ،١٩٥٧ ط١ .
- التبيان في تفسير القرآن ، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسيّ ، تحقيق أحمد حبيب قصي العاملي ، مكتب الاعلام الاسلامي طهران ط١ ١٤٠٩ هـ
- التحرير والتنوير ، الطاهر بن عاشور ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ط١ ، ١٩٨٤.
- التسهيل لعلوم التنزيل ، ابن جزي الغرناطي ، تحقيق عبد الله الخالدي ، دار الارقم ابن ابي الارقم ، بيروت ، ١٤١٦ ، ط١ .
- التعريفات ، علي بن محمد الشريف الجرجاني (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٣م) ط١ .
- التفسير الكبير ، فخر الدين الرازي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٢٠هـ .
- تهذيب اللغة ، أبو منصور الأزهري ، تحقيق محمد عوض مرعب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط١، ٢٠٠١م .

- الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله شمس الدين القرطبيّ ، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم اطفيش ، دار الكتب المصرية القاهرة ، ١٩٦٤، ط١ .
- دلائل الاعجاز ، عبد القاهر الجرجانيّ ، تحقيق ياسين الأيوبيّ (المكتبة العصرية ، ط١).
- روح المعاني ، شهاب الدين الألوسيّ ، تحقيق علي عبد الباري عطية (دار الكتب العلمية – بيروت ، ١٤١٥) ط١.
- سر صناعة الاعراب ، أبو الفتح عثمان بن جني ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ٢٠٠٠م ، ط١ .
- شرح الكافية ، محمد بن الحسن الرضي الاستراباذي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- شرح الكافية الشافية ، جمال الدين ابن مالك الطائيّ ، تحقيق عبد المنعم أحمد هريدي (جامعة ام القرى ، مكة المكرمة ، ط١) .
- الصحاح ، أبو نصر إسماعيل الجوهريّ ، تحقيق أحمد عبد الغفور ، دار العلم للملايين – بيروت ط ٤ ١٤٠٧ هـ .
- العين ، الخليل بن أحمد الفراهيديّ ، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
- غريب القرآن ، ابن قتيبة الدينوريّ ، تحقيق سعيد اللحام .
- القاموس المحيط الفيروز آباديّ، (بيروت، مؤسسة الرسالة) .
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، جار الله الزمخشريّ ، دار الكتاب العربي، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٧هـ .
- الكليات ، أبو البقاء الكفويّ ، تحقيق عدنان درويش و محمد المصري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .
- اللباب في علوم الكتاب ، ابن عادل الحنبليّ ، تحقيق عادل احمد عبد الموجود و وعلي محمد معوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨ .
- لسان العرب ، جمال الدين ابن منظور الأنصاريّ (دار صادر ، بيروت ، ١٤١٤هـ) ط٣ .
- مجاز القرآن ، أبو عبيدة معمر بن المثنى ، تحقيق: محمد فواد سزگين(مكتبة الخانجى – القاهرة- ١٣٨١هـ) ط١.

- مجمع البيان ، أبو علي الطبرسي ، دار المرتضى بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٦م .
- مجمل اللغة ، أحمد بن فارس ، تحقيق زهير عبد المحسن سلطان (مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٦م) ط ٢ .
- المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسيّ ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط١ ، ١٤٢٢هـ .
- المحكم والمحيط الأعظم ، ابن سيده المرسيّ ، تحقيق عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية – بيروت، ط ١ ، ٢٠٠٠ م.
- معاني القرآن ، أبو الحسن الأخفش ، تحقيق هدى محمد قراعة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٩٠ ، ط١ .
- معاني القرآن، أبو زكريا الفرّاء، تحقيق أحمد يوسف وآخرون ، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ط ١.
- معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزجّاج ، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، علم الكتب، بيروت ، ١٩٨٨، ط١ .
- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٤٠٢هـ).
- مغني اللبيب ، ابن هشام الأنصاريّ ، تحقيق د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله (دار الفكر – دمشق ط ٦ ١٩٨٥).
- المفصّل في صنعة الإعراب ، جار الله الزمخشري ، تحقيق ، علي بو ملحم ، مكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٩٣م ، ط١ .
- المقتضب ، أبو العباس المبرّد ، تحقيق محمد عبد الخالق عظيمة ، عالم الكتب ، بيروت .
- النكت والعيون ، أبو الحسن الماورديّ، تحقيق ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- همع الهوامع ، جلال الدين السيوطيّ، تحقيق عبد العال سالم مكرم (الكويت دار البحوث العلمية ، ١٩٧٥) .